

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 20 العدد 01 2024/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

نظام العرش في الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي

بين تأصيل الهوية وسلطة الضبط الاجتماعي

مقاربة أنثروبولوجية دينية

**The throne system in Algeria during the French occupation
Between the rooting of identity and the power of social control
Religious anthropological approach**

أ.د/ فيطس عبد القادر^{1*}

¹ جامعة الجلفة، الجزائر

faitas509@gmail.com

أ.د/ حشلافي لخضر²

² جامعة الجلفة، الجزائر

hachelafi2016@gmail.com

تاريخ القبول: 2023/01/27

تاريخ الاستلام: 2023/01/01

الملخص:

تفتح قضية العرش في الجزائر على أسئلة الجذور المستمدة من ملاحم القبائل العربية والأمازيغية، التي أسست للنموذج القبلي، الذي يُستدعى كمرجع للتضامن يوفر الحد الأقصى من الثقافة الاجتماعية، كتنظيم ضامن للأمن والتعاون والتماسك والحماية الاجتماعية والمقاومة الثقافية. هذا الشكل استمر على امتداد قرون، وترسخت سلطته زمن الاحتلال الفرنسي، ولا يزال مرسوماً في الأفق الاجتماعي والسياسي فكراً واقعاً، سواء كان محل نقدٍ أو محل اطراء. هذا الأفق لا يُفسر وحده هيكله الواقع الاجتماعي للجزائريين، ولكنه يؤثر بطريقة ما في توجيه هذا الواقع، ولا يمكن فهم هذا النظام إلا بالعودة إلى أنماط التنظيم القبلي، ككيان اجتماعي ثقافي، مبني على أساس النسب الواحد، ويتم فيه تسلسل النسب عبر القرابة الذكورية، منذ تأسيسه -

* المؤلف المرسل: أ.د/ فيطس عبد القادر، الايميل: faitas509@gmail.com

في البداية- على معيار الانتساب لجد مشترك (الأصل)، وكيفية تأديته لمهام، حافظت على أصالته وقيمه ووظائفه. وضمنت بقاء موقعه، واستمرار هويته إلى يومنا هذا.
الكلمات المفتاحية : العرش - الجزائر - الاحتلال - الهوية - المجتمع.

Abstract:

The issue of the throne in Algeria opens up to questions about the roots derived from the epics of the Arab and Amazigh tribes, which established the tribal model, which is invoked as a reference for solidarity that provides the maximum level of social culture, as an organization that guarantees security, cooperation, cohesion, social protection, and cultural resistance. This form continued for centuries, and its authority was consolidated during the French occupation, and it is still drawn on the social and political horizon as a realistic thought, whether it is criticized or praised. This horizon does not alone explain the structuring of the social reality of Algerians, but it influences in some way the direction of this reality, and this system can only be understood by referring to the patterns of tribal organization, as a socio-cultural entity, based on a single lineage, and in which the lineage sequence is carried out through male kinship, since It was founded - at the beginning - on the criterion of affiliation with a common ancestor (the ancestor), and how it performed its tasks, which preserved its originality, values, and functions. It ensured the survival of its location, and the continuation of its identity to this day.

Keywords: throne - Algeria - occupation - identity - society.

إن الحديث عن العرش موضوع متشعب مرتبط بالإنسان الجزائري، ضمن ما يحكمه من تنظيم وضبط اجتماعي تقليدي زمن الاحتلال الفرنسي، الذي ظل يراقبه ويرصد حركاته ورجاله، ويحاول فرض العزلة عليه حتى لا يستجيب لنداء الجماعة، باعتبارها رمز السلطة الدينية والاجتماعية، الناتجة عن الوعي الجمعي النابع من الهوية والانتماء.

فهذا البحث يعرض لنظام العرش في أعسر فترة من تاريخ الجزائر المحتلة. بقى مدة عن الهامش، أو طمرت الظروف السياسية الإشارة إليه، أو أسقط من اهتمام وتفكير الدارسين والباحثين لاعتبارات تاريخية.

فإلى أي مدى يمكن اعتبار العرش الجزائري نسقاً طبيعياً للهوية، يحمل قيماً ثقافية واجتماعية ومعاشية...، يعمل منذ نشوئه على صيغ متعددة للحفاظ على أصالة المجتمع الجزائري، وكشكل من أشكال الصمود والمقاومة والدفاع عن الهوية الجزائرية.

قبل أن نخوض في غمار هذا الموضوع يجب أن نجزم بأن المعادل الموضوعي للعرش هو القبيلة بمفهومها الواسع أو العشيرة (القبيلة هي الكيان الذي يرتبط به الناس جسدياً وروحياً، فيعرفون به ويُعرف بهم، ويتفاعلون من خلاله. وهي الجماعة التي تجمعهم صفات وخصائص ثقافية واجتماعية تميزهم عن غيرهم من القبائل الأخرى) (الغذامي، 2010، صفحة 87) وأن اللفظة الشعبية للقبيلة بجميع دلالتها يطلق على تسميتها العرش. والقبيلة أو العرش أو العشيرة اصطلاحات بمعنى الجماعة التي تنتمي إلى أصل واحد، فهي لفظ اجتماعي لتنظيم أفراد مجموعة معينة، وهذا التنظيم موجود منذ العصور القديمة عند جميع الأمم والشعوب، والصفة الأبرز فيها هي العصبية والافتخار بالدم والأحساب والأنساب، ويصنف من أهم مظاهر التزام الأفراد بالجماعة الكبيرة الواسعة.

هذه الجماعة من الناس تنتمي في الغالب إلى نسب واحد يرجع إلى جد أعلى، أو اسم حلف قبلي يعتبر بمثابة جد أعلى، وتتكون من عدة بطون، غالباً ما يسكن أفراد العرش أو القبيلة أو العشيرة إقليمياً مشتركاً يعدونه وطناً لهم، ويتحدثون لهجة مميزة، ولهم ثقافة متجانسة أو تضامن مشترك، أي عصبية ضد العناصر الخارجية، وتنتشر العروش (القبائل/العشائر) في كل

مناطق الجزائر، منها ما اندثر ومنها ما يكاد، ومنها من كثر عدده، ومنها من ذاب في قبائل متاخمة(ونظام القبيلة هو الأصل في المجتمع، فكل خيمة تمثل أسرة، والمعسكر المكوّن من عدة خيم يكون ما يسمى حياً، ثم أهل الحي جميعاً يكونون قوماً، ومجموعة الأقوام القريبة من بعضها في النسب يكونون القبيلة، فأهل القبيلة يرتبطون فيما بينهم برباط القرابة والدم، يخضعون إلى رئيس واحد هو غالباً أكبر أعضاء القوم سنّاً)(العشماوي، 1980، صفحة 129) وإذا عدنا إلى مصطلح علم الاجتماع نجد مفهوم القبيلة ينقسم إلى ثلاثة مفاهيم(بوطالب، 2009):

المفهوم الأول: تجمع كبير أو صغير من الناس يشغلون إقليماً معيناً، ويتحدثون اللغة نفسها، واللغة هنا يعني اللهجة، وتجمعهم علاقات اجتماعية خاصة متجانسة ثقافياً.
المفهوم الثاني: وحدة متماسكة اجتماعياً ترتبط بإقليم معين، وتعتبر في نظر أعضائها ذات استقلالية سيادية.

المفهوم الثالث: عبارة عن قوى وعشائر تتخذ إقليماً معيناً، ويكتنفها شعور قوي بالتضامن والوحدة.

من هذه المفاهيم نصل إلى أن العرش وحدة مجتمعية متكاملة تتفاعل ضمنها الإبعاد الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية..، وتنظم من خلالها الحقوق والواجبات المترتبة على الأفراد بوصفهم أعضاء ضمن التنظيم، وهذا التنظيم من أكثر النظم الاجتماعية قدماً في التاريخ الإنساني، وكانت لفترة طويلة الأساس الذي تقام عليه معايير البناء والتفاعل الاجتماعي في المدن أو البادية وعند الرحل (فالمجتمع (...)) في كل العهود سواء أكانت له علاقة بالحضر أو البداوة أم لم تكن، فإنه يظهر في شكل كتل مؤلفة من عشائر وقبائل(بلاشير، 1986، صفحة 22)وما يميّز أفراد القبيلة الواحدة الشعور المشترك والمصير المشترك، حيث يزداد إحساسهم بالانتماء والتعلق بالدم والعرق والمكان، ما يضمن وحدتهم وبالتالي ضمان البقاء والاستمرار.

وإذا كان علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في العصر الحديث ينطلقون من الأطر العامة لتحديد مفهوم القبيلة الكبيرة فإن ابن خلدون (ابن خلدون، د.ت، صفحة 139) لا تكون القبيلة بالنسبة إليه جماعة متفرعة عن جد أول أو أعلى، كما لا تتحد بما يجتمع بين أعضائها من روابط دم. إن النسب في معناه الضيق لا يعدو أن يكون معطاً وهمياً لا يصمد أمام واقع الاختلاط وعلاقات الجوار والتعايش في المكان. فالإطار الحقيقي عنده (ابن خلدون، د.ت، الصفحات 145-146) (الدراجي، 2003) (بن عبد الرحمان و الجريسي، 1427هـ/2006م) هو النسب بمعناه الواسع والرمزي، وما يمثله من أشكال التحالف والولاء والانتماء، وهذا يعني أن ابن خلدون ربط القبيلة بالنسب وقيده بالرابطة الدموية وركز على دور المكان (الأرض) الذي يشكل محور التحام الجماعة، ومما يركي الإحساس بالانصهار في الجماعة (القبيلة) ويعزز تلاحمها الداخلي الخطر الخارجي الذي قد يهدد استمرار وجودها سواء أكان ناجماً عن عصبية زاحفة من خارجها، أو عن تدخل سلطة مركزية، كما أن علاقات القرابة والتحالف الموجود بين أعضاء القبيلة الواحدة تؤدي إلى إقامة الفوارق بين مجموعات القبيلة التي كثيراً ما تتسبب في عمليات التنافس الحادة، والصراع على الموارد ومصادر العيش. أما في الجزائر فإن كل عرش يستخدم أفراداً لهجة تميزهم عن غيرهم، إضافة إلى منظومة اجتماعية ثقافية تحدد أوجه التكامل في الحقوق والواجبات بين الأعضاء المكوّنين لها، كما أن لكل عرش حيزاً مكانياً يعيش فيه، يظهر سماته في البوادي والأرياف أكثر من المدن. وبعض العروش والقبائل تعتمد على كثرة التنقل والترحال عبر المساحات المكانية التي تستطيع الاستثمار فيها، تبعاً لطبيعة ظروف المناخ ووفرة الكلاً لحيواناتهم التي هي مصدر عيشهم واستزاقهم (الترحال في أصله ضرورة معاشة لطلب المرعى والماء. ونشاط دائم تحدده الطبيعة وتبدلاتها المختلفة، إلا أنه كثيراً ما يتحول إلى معطى ثقافياً وعملاً سلوكياً يمنح المترحلين مزايا كثيرة لتعزيز القوة وإذكاء المخيلة) (الحسين، 1431هـ/2010م، صفحة 135). مثلما نجد سكان المناطق الجنوبية والسهبية الذين ينتقلون إلى مناطق التل (الشمال)، التي تتمتع بأراضٍ وتربة خصبة ومناخ معتدل.

والعروش في الجزائر - إبان الاحتلال الفرنسي - تتفرع وتنقسم كل منها إلى وحدات صغيرة، بتشكيلها يتكوّن النظام القبلي الذي هو الطابع العام والمميز للمجتمع الجزائري. أكثره يسكن الشمال، وبعضه يسكن الهضاب العليا والمناطق السهلية الوسطى، والبعض الآخر في الجنوب، وكل هذه الوحدات في اتحادها تكوّن وزناً، فكل منها لديها قوة مميزة في عددها وعدّتها، وفي ثرائها المادي والمعنوي.

والقراية والمصاهرة هي لبنة البناء في وحدات العرش (القبيلة أساس الحياة الاجتماعية، والقبيلة أسرة كبيرة يربط بعض أفرادها ببعض سبب من القراية أو الزواج) (فروخ، 1385هـ/1965م،، صفحة 60). وأركان العرش مبنية على ثلاث وحدات هي:

1- العائلة: هي مجموعة من الأفراد الذين ينتمون إلى نسل واحد مشترك، تحمل نفس اللقب أو كنية العائلة، وتتشترك في شخصية جد من الأجداد، ولكل عائلة شيخ يرأسها.

2- النزلة: عبارة عن مجموعة من العائلات تتجمع وتندمج فيما بينهما، وتختار شخصاً كبيراً أو شيخاً حليماً وتقدمه ليتولى الأشراف عليهم، ويسمى شيخ النزلة ويحكمون إليه في جميع شؤونهم. والنزلة لها مسميات عديدة حسب المناطق والعروش في الجزائر.

3- الفرقة: مجموعة مكوّنة من عدد من النزلات، وهي تشكل إقليمًا قائمًا بذاته، وتتفرع من أصل جد واحد أعلى، تحمل اسمه، والقرار داخلها منوط بجماعة شيوخ النزلات الذين يمثلون سلطة الفرقة، ويعينون أحدهم ليرأسهم يشترط فيه أن يكون حليماً وحكيميا وذا حظوة ونفوذ وخبرة.

العرش: عبارة عن اتحاد مجموعة من الفرق، تنحدر من جذع واحد هو الأصل الذي بنت عليه بنية علاقتها في الدم، ويشكل مجلساً كبيراً يرأسه أحدهم بالنشاور (إن تنظيم القبيلة أو الرهط سواء عند البدو أو الحضار لا يختلف

بصورة جوهرية في الأزمنة القديمة كما هو عليه اليوم. فعلى رأس كل قبيلة مجلس مؤلف من رؤساء الأسر أو من رؤساء الرهط تبعاً لمقياس القبيلة، وإلى المجلس تعود مناقشة جميع القضايا

التي تهم القبيلة) (بلاشير، 1986، صفحة 36). وتُنظم مظاهر السلطة في العرش بتسلسل على مستويين:

المستوى الأول يتعلق بتقسيمه إلى بطون وأفخاذ وأسر، وعلى رأس كل منها من يمثله بالنسبة إلى التنظيم الأعلى في الترتيب الهرمي.

والمستوى الثاني يخص قيادة العرش وزعيمه وكل من يمثله في الفرقة والنزلة والعائلة، ويطلق عليه تسمية الشيخ، حيث يحظى بالتقدير والطاعة لما يحول له من مسؤوليات وصلاحيات في إدارة شؤون العرش، ونفس الصفات تطلق على باقي الوحدات ورؤسائها.

وكل وحدة من هذه الوحدات لها مجلس خاص بها مكوّن من الحكماء والوجهاء والأعيان وذوي الحل والعقد، وهذا المجلس ينظر يوميا في شؤون الوحدة وملزم أمام الوحدة الأعلى. منوط به النظر في الطلبات والحاجيات وحل المشاكل وفض النزاعات، والتحكيم في الأمور ومجازاة الصالح، ومعاقبة الجاني، واتخاذ القرارات المصيرية في كل الأحوال وفي كل القضايا ذات الطابع الاجتماعي. ومجلس العائلة إذا تعذر عليه حل مشكل ما، فإنه يحيله إلى مجلس النزلة، وإذا لم يجد له حلا وجب عليه إحالته إلى مجلس الفرقة فإن تعذر ذلك أحاله إلى مجلس العرش. وكل العروش ملزمة بطاعة الباشا آغا المعين من قبل السلطات الفرنسية، وكل عرش فشل في حل مشكلة ما، رفعه إلى الباشا آغا، وهذا الأخير له الصلاحيات والسلطات التقديرية في كل الأمور ماعدا جناية القتل العمدي فإنها ترفع إلى المحاكم الفرنسية للبحث فيها. أما دية القتل فهي منوطة بوحدات العرش هي التي تجمعها من الأفراد.

وهناك أمر بالغ الأهمية وجب الإشارة إليه، هو أن فرنسا وضعت نظاما قضائيا للمسلمين الجزائريين حيث جعلت لهم محاكم شرعية تبث وتحكم في القضايا المدنية والاجتماعية بكل أنواعها على مذهب الإمام مالك بن أنس، وإذا كانت قضية تتطلب اجتهادا فيعمدون إلى مذهب أبي حنيفة النعمان. أما الجوانب الجزائية البسيطة المتعلقة بالعقوبات التأديبية أو التعزيرية أو النفسي فمن صلاحيات وحدات العرش أو الباشا آغا. أما الجنايات مثل القتل العمدي فمن اختصاص المحاكم النوعية الفرنسية.

وفي البوادي والأرياف أو عند الرحل فإنهم يعينون إماما يتولى شؤونهم الدينية، يوجههم في حياتهم الاجتماعية كالزواج والطلاق وغيرها، كما يعينون معلما يعلم أولادهم مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم أو بعض أجزاءه برواية ورش عن نافع، وبعض متون الفقه والنحو إذا تيسر ذلك، خاصة متن خليل. ويعتنق الجزائريون مذهب الإمام مالك بن أنس، أما سكان وادي ميزاب يعتقدون المذهب الإباضي.

ومجلس العرشكان قد اتخذ قرار إعلان الجهاد في سبيل الله لتحرير الجزائر وشارك مع المقاومة الشعبية في كل مناطق الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي إلى غاية الثورة التي توجت بالاستقلال.

وصفوة القول إن النظام الذي نهجه العرش استطاع أن يحافظ على أصالة المجتمع الجزائري، فقد صنع مجتمعا فاضلا يعتمد على القيم والأخلاق والفضيلة وحكم الجماعة. والتمسك بالهوية الجزائرية والحفاظ عليها.

وكانت الجماعة تمثل مجلساً يفصل في كل القضايا التي تهم المجتمع، ولها من الوسائل ما يمكنها من تطبيق ما تواضعت عليه من أعراف وعادات وتقاليد. هذا التنظيم المتعدد الأوجه، سياسي، اجتماعي، ديني... كان سائداً في كل قرية، حتى البدو والرحل. ظل يحافظ على المصالح المشتركة بين العائلات، باعتباره يمثل دور الضبط الاجتماعي، الذي يشكّل محور تسيير الجماعة. فمكانة الجماعة قديم في تسيير حياة الجزائريين. فهي المرجع لكل الحالات والمواقف، وظلت تلك المكانة وذلك الدور يضبطان كل تصرفات الأفراد داخل المجتمع.

ومجلس الجماعة يجتمع دورياً، أو كلما دعت الضرورة إلى ذلك. تطرح وتعالج فيه أهم القضايا التي تناقش بحرية، من حيث إبداء الرأي حولها ثم اتخاذ القرار الذي تؤيده الأغلبية، والذي تراه مناسباً للموقف أو الحالة أو الظرف أو الطارئ.

ويتعلم الأفراد من الجماعة التخلي عن الأنانية أمام المصلحة العامة، حيث تذوب الفردية أمام إرادة الجميع. وبهذا الهدف يتعلمون منها المواطنة، حيث يتعرفون على حقوقهم وواجباتهم. وفي بعض مناطق الجزائر عُرف مصطلح الجماعة باسم " العُقَال ".

ويبدو أن الجماعة سلطة بديلة عن المحاكم في القضايا الاجتماعية والمدنية والأحوال الشخصية، وبعض القضايا الجزائية.

خاتمة:

النتيجة المتوصل إليها والملاحظة المستنتجة تتضمنها الخلاصة التالية:

للعرش مدلول واسع الاستعمال. رغم ما يشوبه من بعض الغموض في مفهومه العام، سببه اختلاف علماء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، الذين طبقوا مفهوم المجتمع القبلي على مجموعات اجتماعية شديدة الاختلاف. وهو ما جعله يستقي بنيات نظام المجتمع القبلي، ذلك الشكل من الجماعة التي كانت توصف بالمجتمع البدائي. رغم أن لفظ القبيلة ليس مستعملاً في الجزائر، للتعبير عن شكل من التنظيم الاجتماعي، يمارس السلطة الاجتماعية، بل اللفظ السائد والمهيمن هو العرش، باعتباره الكيان الاجتماعي المؤلف من فئتين: الأصل النسب الواحد، والتضامن الذي يربط الأشخاص بالانتماء إلى أصله، وتعمل كشخص جماعي (معنوي) أو (اعتباري). وبهذا يتحدد الموقع المكانة.

وتكمن أهمية هذه الممارسة في قيمتها المعيارية، وفي تأثير المرجعية القبلية في هيكلة الهويات الاجتماعية المبتوثة في تعاليم الدين والمعتقد والعرف والأخلاق والقيم والفضائل والعادات والتقاليد...

فالعرش الجزائري - إبان الاحتلال الفرنسي - بنية تقليدية، يؤطر فئات المجتمع، بالاعتماد على الجماعة الممتلئة للسلطة الدينية والاجتماعية، كما أنه النسق الطبيعي للانتماء. ظل يعمل ويحافظ على أصالة المجتمع الجزائري ويحميها، وينافح عن قيمه الاجتماعية والمعاشية المحددة لمصيره، وكشكل من أشكال الصمود، وصور المقاومة الثقافية، والدفاع عن الهوية الوطنية، والشخصية العرقية من التفسخ والتأثيرات السلبية للاحتلال الفرنسي.

المراجع

- 1- إبراهيم الحسين. (1431هـ / 2010م). خاصية الترحال في ثقافة وفكر إنسان الصحراء. مجلة التراث الشفاهي.
- 2- ابن خلدون. (د.ت). المقدمة. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- 3- بوزيان الدراجي. (2003). العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني. القاهرة، مصر: دار الكتاب العربي.
- 4- خالد بن عبد الرحمان، و علي الجريسي. (1427هـ/2006م). العصبية القبلية من المنظور الاسلامي . الرياض، السعودية: دار الرياض.
- 5- رجيس بلاشير. (1986). تاريخ الأدب العربي (الإصدار 1). (ترجمة إبراهيم الكيلاني، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.
- 6- عبد الله الغدامي. (2010). النقد الثقافي. قراءة في الأنساق الثقافية العربية (المجلد 1). القاهرة، مصر: الهيئة العامة للثقافة.
- 7- عمر فروخ. (1385هـ / 1965م). تاريخ الأدب العربي (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار علم للملايين.
- 8- محمد زكي العشماوي. (1980). النابغة الذبياني. دار النهضة العربية.
- 9- محمد نجيب بوطالب. (2009). سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي (المجلد 1). بيروت، لبنان: مركز الدراسات الوحدة العربية.